قصص الآداب

آلام رأس الملكة

ليلى العثمان

مازالت المطارق تعمل دون انقطاع. أشك أن هذا رأسي. فلقد تحوّل إلى ورشة حدادة، أو «سوق صفافير». فعلت كل ما أمكنني للتخلص من الألم. استخدمت المراهم. الأعشاب. حبوب البنادول. واستخدمت طريقة جَدّتي في ربط عصابة على الرأس. لكنني فشلت، فقررت مراجعة الطبيب. لكن الأسابيع مرّت ثقيلة، ولم يثمر الدواء. فرفعت سماعة الهاتف، واتصلت به:

– أواظب على الدواء. لكن الألم في رأسي لا يهدأ.

قال كمن يرد عن نفسه تهمة التقصير:

– وصفت لك أقوى علاج. لكن يبدو أن متاعبك أقوى منه.

ابتلعتُ رده المجرّد من الحنان. تكوّمت على الأريكة محاصرةً بغيظي وآلام رأسي، وبتلك المتاعب التي لم أفصح عنها رغم تواتر أسئلته، وهو يتفقّد غدّة عنقي وقاع عيني وحركة أطرافي بمطرقته الصغيرة.

ماذا كنت سأقول له؟ كل شيء بات مزعجاً. أحوال الدنيا كلها لا تسر. حروب، زلازل، أوبئة، رائحة موت متعدد الأشكال. أحوال البلاد هي الأخرى التي لا تسر: الفساد، الجشع، الفوضى، معاناة يوميّة جعلتنا نكفر بالقوانين والمسؤولين وزملاء العمل الذين يرتخون كذباب على الكراسي، ويحاربون من ينزف دمه وعرقه ويختار لنفسه موقعاً بين السحاب.

هل كنتُ سأحدثه عن تلك الثعابين التي تسقط عدوانها الوحشيّ لتقذف ثماري بالحجارة والسموم؟ أم عن الحب الذي يحاصرونه بالسهام، والدسائس؟

قاومتُ كسلي. أسلمت جسدي لدش الماء البارد. اندسستُ في الفراش. تناولت حبتين من العلاج بدل الواحدة. أهويت برأسي المتعب على وسادتي. حضنت وجه حبيبي. أسدلت عليه رموشي. قررت أن أنام مبكرة لأرتاح من مطارق رأسي.

• • •

طرقات على باب غرفتي. معزوفةٌ لا تجهلها روحي. هل يُعقل أن يفاجئني الليلة بالزيارة؟ نشوانة سابحةً في الخيال تحركت. فتحت الباب. انتشر عطر رجولته يبلّل اندهاشات وجهي. أشرع ذراعيه جناحين يتسعان لعمري. ارتميت إليه غير مصدقة:

– كيف خطر لك أن تأتي؟

– عندي هدية رائعة لك.

تسرَّب الغضب إلى صوتي:

– طلبت منك أن تكف عن هذه العادة.

ابتسم بعذوبة:

– أنت امرأة غريبة. عرفت نساء كثيرات يصل عشقهن للهدايا حد الابتزاز. وأنتِ!!

– زيارتك لي أجمل الهدايا.

هرس أنفي الذي يعشقه بين إصبعيه كما يفعل دائماً:

– هدية الليلة شيء مختلف. تعالي.

أجلسني أمام المرآة. أمرني برفق:

– أغمضي عينيك. لا تفتحيهما قبل أن أدعوك لذلك.

– لا أستطيع أن أغمض عيني دقيقة واحدة وأنت معي.

رجاني:

– هذه المرّة فقط.

كان الرجاء حنوناً. أشبعت عينيّ منه قبل أن أطبقهما.

كفّاه تتقافزان على رأسي. تهدآن. ثم قال:

– انظري الآن.

بهرني المنظر. شهقت:

– تاج؟؟

ترقرقت كلماته بالصدق:

– وهل غيرك ملكة تستحقّ التاج؟

– كم كلّفك هذا؟

– أرجوك. لا تحاسبيني. لهذا التاج مفعول السحر.

– ولكن!!

صبَّ حنان عينيه في عمق عيني. احتضن كتفيّ. تأملني في المرآة:

– هذا التاج ينبغي ألاّ يغادر رأسك أبداً. نامي. تحركي. استحمّي. اركضي. اخرجي. لكن إياك أن تنزعيه عن رأس الملكة.

قهقتُ:

– تريد أن يقول الناس عني إنيّ مجنونة!

قال جاداً وواثقاً:

– هذا التاج لا يراه إلاّ أنا وأنت!

لمح دهشة الشكّ في وجهي. أكّد:

– صدّقيني. هذا تاج سحريّ يقيك شرّ الناس والمرض.

رفعني عن المقعد. ضغط على كفي:

– هيّا. لنخرج الآن.

– هل أنت مجنون؟

– منذ عرفتك بدأت أمارس الجنون. تعالي. الجوّ جميل هذه الليلة يستحقه عاشقان مثلنا.

تزاحمت في صدري ضربات الفرح. لا أدري كيف اندلق جسدانا: من النافذة أم الباب. كأن أجنحةً حملتنا، رأفت بنا حتى وصولنا إلى شارع غريب. لا أبنية. لا أضواء. ليس سوى أصوات الليل ترنّ. تتّسع. تصفو مثل حليب طازج ينسكب على العالم. الأرض مهجة حانية مفروشة بطين أحمر ناعم لا تُسمع فيه آثار الخطوات. وعلى الجانبين تصطفّ أشجار نخيل باسقة نحو السماء. وكلما اقتربنا من نخلة انحدرت نحو الأرض ليصبح ثمرها في متناول اليد.

همست وأنا أهرس نفسي إليه:

– ما أجمل ابتعادنا عن شرور النهار.

– نحن الآن في الجنة. فلنتذوقي ثمرها.

قطف بلحةً ناضجة،دسّتها أنامله في ثغري، قبل أن أقضمها:

– وأنتَ! ألن تأكل؟؟

وبحب شهيّ أجاب:

– لا يستحق هذه الثمرة إلاّ ثغر الملكة.

داعبته:

– ألا يستحق ثغر الملكة غير هذه الثمرة؟

تقافزت من ثغره النجوم. انثال على شفتي عصيرُ البلح. رشفت عصير شفتيه.

زوّدتنا نشوة القبلة بالقوّة. انتظمتْ خطواتنا سابحةً، طائرةً، طَرِبَةً، راقصة على أصوات الليل الحريريّة. لم نتوقف إلاّ حين غلّفت الطريق عتمةٌ مفاجئة. أحس بارتعاشي. همس:

– لا تفزعي. المسي التاج.

قبل أن أستفسر كانت كفّه ترفع كفّي وتلامس بطرف إصبعي ماسةً تتوسّط التاج.

لمسة رقيقة وانفضّت العتمة كما يفضّ الصبح بكارة الوردة.

وانطلق صوته شارحاً:

– وبلمسةٍ أخرى، يرحل الضوء. هكذا تكونين الملكة القادرة على التحكم بولادة الضوء وموته.

– شيء عجيب.

فأردف مؤكداً بثقة:

– سترين الأعجب.

أسدلت رأسي إلى كتفه. احتضن خصري برقّة. توقف ليقطف بلحةً أخرى. قلّبَ العذق. اختار واحدة بلون العسل. ألقمها ثغره وأطبقه على ثغري. امتصصت الثمرة المعطرة. ضحكت منتشية:

– هكذا. بلحة وقبلة في وقت واحد.

قرص شفتي:

– حتى تتأكدي أنني لا أنسى ثغر الملكة.

انغلق الطريق أمامنا. تشبثت به مرتجفة. أطلقت صرخةً أشبه بالآهة. صوته يحثّ:

– المسي التاج بسرعة.

ما كدتُ حتى انفتح الطريق أمامنا. أضواء تتلألأ. أرض كالبساط، عشب أخضر مدهونةٌ رؤوسه بالندى. أزهار بنفسجيّة غريبة التكوين. نباتات كالشموع تتمايل محلاّة رؤوسها بالتيجان. بحيرة تتوسط البساط رقراقة تتموّج نشوى بألوان قزح. انفرط حماسي أمام الجمال المذهل.

شددته:

– تعال نسبحْ.

تردّد:

– الهواء بارد. لعل الماء كذلك.

أشرتُ إلى رأسي بغرور:

– لمسة من التاج. ويدفأ.

اشترط مداعباً:

– ستنزعين ثيابك أمامي.

تنبّهت لانتصاره. تخلصت بلباقة:

– أشهى أن نغوص بملابسنا.

قال صوته مفعماً باليأس والعتاب:

– لا أدري متى تتحررين من خجلك. كل النساء اللائي عرفتهنّ لسنَ مثلك. فقبل أن أخلع حذائي لأجلس تكون الواحدة قد تعرّت.

حدقت في عينيه. داعبت شفتيه بسبابتي وإبهامي:

– نساء لا يعرفن الحب.

هرس رأسي إلى صدره. هرسه بقوّة كمن يخشى أن يفلتَ منه. تدفق همسه كقصيدة:

– ليس مثلك امرأة تعرف كيف تعطي الحب. أحب حنانك، حياءك، انتشاءك وأنت في خيمة الثياب وخيمة جسدي. حبي العظيم أنتِ.

• • •

كم مضى من الوقت قبل أن نفكّ التحامنا ثم نتسابق نحو البحيرة، نتراشق بمائها العذب، نشرب منه، تتبادل شفاهنا الأنخاب. ونقرّر أن نرتمي في ابتسامة الألوان.

في اللحظة التي أسقطنا فيها أقدامنا تفجّر قلب البحيرة كالبركان. انطلق منه ثعبان ضخم فاغراً حلقه العجيب. النار تنطلق منه متوحّشة متفرعة إلى ألسنٍ تقذف سُماً. تبددت غمرة نشوتنا فانطلقنا كعصفورين مبلّلين نبتت لهما آلاف الأجنحة. وانطلق صوته واضحاً رغم صوت الريح المفزع:

– المسي التاج.

في لمحة بصر، كنا نتلاصق في قلب شجرة ضخمة. أوراقها الكثيفة نديّة كوجنات طفل. رائحتها كصدر أمّ يدر حليبه لأول مرة. أحاط بنا أمانٌ عجيب. واسترسلت عيوننا تراقب الثعبان الذي استقر أسفل الشجرة عاجزاً عن التسلق أو القفز، رغم كل محاولاته والتواءاته. وبارتجاف تحرّك لساني وقد حسبته تخشّب:

– شرور الليل أيضاً تلاحقنا.

وبهدوء شديد قال:

– اقذفي بماسةٍ من التاج إلى حلقه.

تحسّست رأسي غير مصدقة أن التاج مازال متشبثاً به رغم الهرولة والطيران. اقتطفت ماسة. حدّدتُ وجهتها جيداً باتجاه الحلق المفتوح. أسقطتها فيه. دفنتُ وجهي في صدره وقد انكمش قلبي خشيةً مما قد يحدث.

تنبّهني كفّه:

– انظري.

المنظر عجيب. تحوّل الثعبان إلى حبل من النّار. تلوّى على نفسه حتى تَفزّم تماماً وسقط زاعقاً على الأرض. خمد كتلةً من الرماد. لا دخان. لا رائحة حريق. ظل الليل صافياً والسماء بهيجة. غمرنا دبيب الفرح. انحدرنا من الشجرة بسهولة وليونة، وكأننا ننزلق من بوق وردي أملس. تفقّدني بحنان. ومثل أم تتفقّد سلامة طفلها بعد الغرق لامستُ وجهه، جسده، أصابع قدميه، و لم أتوقف إلاّ حين عطّرَ سمعي:

– أنا بخير. اطمئني.

ابتَعدت عنه خطوات. فزع قاطعاً خطوتي:

– ماذا تنوين؟

بإصرار:

– سأبحث عن الماسة بين الرماد.

أبحرت عيناه نحو رأسي، تهلّل وجهه الجميل:

– الماسة موجودة.

لم أصدق. تفقدت التاج أبحث عن ثقب الماسة المخلوعة. تأكدت أن لا شيء نقص. نظرت إليه أشكر هديته العجيبة. نظر إلى الرماد. ندّت عنه شهقة:

– ما هذا؟؟

نظرت إلى الرماد الذي أزهر أوراقاً ملونة. تشجعنا، دنونا، استللنا الأوراق بحذر واحدة بعد الأخرى. نفتحها، نقرأ: أمثالاً، حكماً، أمانيّ، طرائف، مقاطع من قصائد عشق. بقيت ورقةٌ منطوية كزهرة خجولة. تجادلنا من يفتحها. سمح لي وعيناه تترقبان، تسربت الكلمات من لسانه نحو أذني:

«أنت الملكة المنتصرة على كل الشرور».

برقت الفرحة في عينيّ. وأكّد سؤالُه:

– هل صدّقتِ الآن؟

وبدلال حمل مغزاه قال:

– المهم أن أكون ملكة قلبك.

بصدق تقاطر ندياً:

– لقد استحوذت على العرش كله.

غردت الكلمة في شراييني. رقصت في معطف قلبي. نداؤه يغريني:

– تعالي ننام.

تحوّل الرماد سريراً ليّناً. استلقينا عليه دافئين، أزحت جسدي قليلاً لأوسع له. شدني. صوته شجيّ كالناي:

– لا تبتعدي. الليلة أنت لي.

– وكل ليلة. روحي لك جنّة. جسدي لك بحر.

لمست التاج. حرّرتني اللمسة من كل ثيابي. تسكعت نظراته الوالهة على التفاصيل المضيئة. تلمست كفّاه دروب الجنة والنار. أمطرت سماؤه. أنعشت الزنابق. التين والزيتون. تفاح الجنان. كرز الحدائق. مزارع البن الأصيل. ذبتُ. تمنيت أن أبقى هكذا حتى ما بعد الصحو والأحلام. أنامله فوق التاج. شفته في مغارة سمعي تحذرني بحنان:

– إياكِ أن تنزعيه. وكلما احتجت إليّ اطرقي عليه هكذا..

تك ..تك...

• • •

دقات الباب تتواصل. فرّ النومُ فزعاً. وحدي في الفراش الثلجيّ. رائحة جسدي حريق. رائحة وسادتي رماد. قفزت من السرير إلى المرآة. شعري منسدل. غُرّتي تكاد تدفن كل جبيني. لا شيء فوق رأسي ولا داخله. أين ذلك الألم العاصي وطرقات المطارق؟ أينَ التاج؟ التاج! درتُ كالمجنونة. أنكش الفراش. الأثاث. الأدراج. لم أعثر على شيء. تزحلقت إلى الأرض أنتحب غير عابئة بالطرقات المتوالية على الباب. صوت يشع في جسدي. ذبذبات. حكايات. قصائد. يدسّ همسه الوديع: «التاج على رأس الملكة».

حركني نشاط مفاجئ نحو الباب. وجه أختي وصوتها الخائف:

– طرقت كثيراً. ما هذا النوم البليد؟

وأردفتْ قبل أن أجيب: ما أجمل شعرك اليوم. كيف آلام رأسك؟؟

نظرت الى الهاتف. اتصلت بالطبيب. بادرته معلنةً عن نفسي. ألقيت عليه قراري:

– سأردّ لك كل الأدوية. لم أعد بحاجة لها.

الكـويت

حكايةُ الذّئب والولد الحزين

فكّر الولدُ الحزينُ في أن يضرب الباب بقبضتيه، أو أن يعوي. كان قد رأى، مرّةً، ذئباً يعوي ويتقلّب في الوحل، والفخُ المسنونُ مطبَقٌ على فكّه الأسفل. بكى يومها كما لم يبكِ أبداً، ونام وهو يدعو على جدّه بالموت حَرْقاً، لأنه هو الذي كان قد وضَع الفخّ للذّئب.

وحينما لم يستطعْ أن يضرب البابَ بقبضتيْه، أو أن يعوي، تكوّم حول نفسه كنقطة حِبْرٍ في الزاوية المعتمة من الغرفة، وراحَ يتذكّر يومَ الذئب: سماءَ الشتاء البرصاء، والترابَ الجامد الكريه، والجلدَ الممزّق حول فكّي الذئب، وعواءَه اللاّسع، ودمَه الغريب الذي كاد أن يكون إنسانياً، وقهقهَةَ النّصر الحيوانية التي أطلقها جدّه.

كان يومها، وبعد أن عاد الجميع إلى القرية، قد عاد إلى مشارِف الغابة، وحمل الذئبَ الصغير ليواريَه الترابَ. لكنه انتبه، في غمرة حزنه، إلى عينيه اللتين لم يغمضهما الموت. وتوقف مشدوهاً وهو يصرخ: «كلّ هذه الألوان! كلّ هذه الألوان!». وراحَ يردّد كالمغمور: الأسودُ الحبريّ – البرتقاليّ الناريّ – الأزرق المرجانيّ – الأصفر – الأخضر – البنفسجي – الكستنائي – العسلي – الزمرّدي – الأحمر النبيذي – الأحمر القاني – الأبيض الثلجي – الأبيض الحليبي...

وحينما تذكّر عرسَ الألوان ووحشتها، قام إلى ألوانه المائية، وراحَ يمزجها بعنف، ويضرب الورقة بكفّيه الملطختين بالألوان. ثم أطفأ المصباح الغازي. وخرج يعوي، ويضرب بابَ غرفة جدّه بقبضتيه.

وفي الظلام الكثيف شُوهِدَ كهلاً يكتبُ قصصه، وتحت نظارته، تضحك عينا ذئب صغير.

المرأة في غرفة نومها

كانت مأخوذة بلوحتها الأثيرة. تبكي حيناً، تضحك حيناً، وتقرص فخذيها كي تفيق، وعلى طول الجدار المقابل للسرير، لم تأتِ النّارُ التي أضرمتها في ملابسها الداخلية على شيء يذكر. بل كانت تترقرق بلطف على الجدار، متموجة هاذية. وكانت ألسنتها الزرقاء القصيرة تتراقص فوق الثياب، تلحسها، تتوغل في نسيجها من الجهتين، تطاول مساحته، وتعود إلى موطنها من الشعلة، دون أن تحوّله إلى رماد.

ظلت المرأةُ عاريةً أمام لوحتها الأثيرة، المعلّقة على الجدار الجانبي، الذي يفصل بين السرير وباب الغرفة، والذي شغلت نصفَه السفليَّ مرآةٌ بلوريةٌ كبيرة في إطار نحاسي رفيع. كانت ترقص وتبكي، وهي تبحث في فرعها عن أصل الشجرة. تدور حول نفسها هاذيةً، تلقي بجسدها النحيل على الفراش. تمرّغ وجهَها في الزهور المجفّفة المنثورة فوقه، وتعود محمومة عطرة، لتقف أمام اللوحة.

كانت زهور فان غوغ تتدلّى بأعناقها البذيئة، وأصفَرها الوحشي، من إطار اللوحة المصوّرة، كلّما تعرّت المرأة وأضرمت نارها الصغيرة المقدّسة في ثيابها الداخلية. وألقت بنهديها في قلب اللوحة باكية، ودارت حول نفسها هاذية، وأعلنتها أصلَ الشعلة...

وعندها، تندلق على صفحة المرأة، التي تشغل نصف الجدار، تحت اللوحة، عشراتٌ من الآذان الدّامية.

البشير الجراري
اغادير (المغرب)